علماء بغداد في القرن السادس

ومكانتهم في الوعظ والتذكير

قال الرحالة ابن جبير الاندلسي بعد ان وصف بغداد بأنها أمست بالنسبة الى ما كانت كالاطلال الدارس وانتقد أخلاق أهلها ومعاملتهم وغرورهم ببلدهم ما نصه :

استغفر الله الا فقهاءهم المحدثين ، ووعاظهم المذكرين ، لاجرم ان لهم في طريقة الوعظ والتذكير ، ومداومة التنبيه والتبصير، والمثابرة على الانذار المخوف والتحذير ، مقامات تستنزل لهم من رحمة الله تعالى ما يحط كثيرا من أوزارهم ، ويسحب ذيل العفو على سوء آثارهم ، ويمنع القارعة الصماء أن تحل بديارهم ، لكنهم معهم يضربون في حديد بارد ، ويرومون تفجير الجلامد ، فلا يكاد يخلو يوم من أيام جمعاتهم من واعظ يتكلم فيه ، فالموفق منهم لا يزال في مجلس ذكر أيامه كلها لهم في ذلك طريقة مباركة ملتزمة ، فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الامام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية ، وفقيه المدرسة النظامية ، والمشار اليه بالتقديم في العلوم الاصولية ، حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر المذكور ، فصعد المنبر وأخذ القراء امامه في القراءة على كراسي موضوعة ، فتوقوا وشوقوا وأتوا بتلاحين معجبة ، ونغمات محرجة مطربة ، ثم اندفع الشيخ الامام المذكور يخطب خطبة سكون ووقار ، وتصرف في أفانين من العلوم من تفسير كتاب الله عز وجل ، وايراد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتكلم على معانيه ، ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب ، فأجاب وما قصر ، وتقدم وما تأخر ، ودفعت اليه عدة رقاع منها ، فجمعها جملة في يده وجعل يجاوب على

كل واحدة منها وينبذبها الى أن فرغ منها، وحان المساء فنزل وافترق الجمع. فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وتورا هينا لينا، ظهرت فيه البركة والسكينة، ولا سيما آخر مجلسه، فانه سرت خيا وعظه الى النفوس حتى أطارتها خشوعا، وفجرتها دموعا، وبادر التائبون اليه سقوطا على يده ووقوعا، فكم ناصية جزّ، وكم مفصل من مفاصل التائبين طبّق بالموعظة وحز، فيمثل مقام هذا الشيخ المبارك ترحم العصاة، وتتغمد الجناة، وتستدام العصمة والنجاة، والله تعالى يجازي كل ذي مقام عن مقامه، ويتغمد ببركة العلماء الاولياء عباده العاصين من سخطه وانتقامه، برحمته وكرمه انه المنعم الكريم لا رب سواه ولا معبود الا إياه

وشهدنا له مجلسا ثانيا اثر صلاة العصر من يوم الجمعة الثاني عشر من الشهر المذكور، وحضر ذلك اليوم سيّدُ العلماء الخراسانية، ورئيس الأئمة الشافعية، ودخل المدرسة النظامية بهزّ عظيم وتطريف آماق تشوقت له النفوس، فأخذ الامام المتقدم الذكر في وعظه مسرورا بحضوره ومتجملا به، فأتى بأفانين من العلوم على حسب مجلسه المتقدم الذكر، ورئيس العلماء المذكور هو صدر الدين الخُجَنْديّ المتقدم الذكر في هذا التقييد المشتهر المآثر والمكارم، المقدم بين الاكابر والاعاظم،

ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الامام الاوحد جمال الدين أبي الفضائل ابن علي الجوزي بازاء داره على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره على اتصال من قصور الخليفة وعقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقي، وهو يجلس به كل يوم سبت، فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد، وفي جوف الفرا كل الصيد، آية الزمان،

وقرة عين الايمان، رئيس الحنبلية، والمخصوص في العلوم بالرتب العلية، إمام الجماعة، وفارس حلبة هذه الصناعة، والمشهور له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة، مالك أزمة الكلام في النظم والنثر، والغائص في بحر فكره على نفائس الدر

فأما نظمه فرضي الطباع، مهيأ الانطباع، وأما نثره فيصدع بسحر البيان، ويعطل المثل بقس وسحبان، ومن أبهر آياته، وأكبر معجزاته، انه يصعد المنبر ويبتدئ القراء بالقراءة وعددهم نيف على العشرين قارئا، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق، فاذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات، الى ان يتكاملوا قراءة وقد أتوا بآيات مشتبهات، لا يكاد المتقد الخاطر يحصلها عددا، أو يسميها نسقا، فاذا فرغوا أخذ هذا الامام الغريب الشان في ايراد خطبته عجلا مبتدرا، وأفرغ في أصداف الاسماع من ألفاظه درا، وانتظم أوائل الآيات المقروآت في أثناء خطبته فقرا، وأتى بها على نسق القراءة لها لا مقدما ولا مؤخرا، ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها، فلو ان أبدع من في مجلسه تكلف تسمية ما قرأ القراء به آية آية على الترتيب لعجز عن ذلك، فكيف بمن ينتظمها مرتجلا، ويورد الخطبة القراء بها عجلا؟ (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون؟) انّ هذا لهو الفضل المبين. فحدث ولا حرج عن البحر، وهيهات ليس الخبرُ عنه كالخُبْر، ثم انه أتى بعد ان فرغ من خطبته برقائق من الوعظ، وآيات بينات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقا، وذابت بها الانفس احتراقا، الى ان علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا

عليه تساقط الفراش على المصباح، كل يلقي ناصيته بيده فيجزها، ويمسح على رأسه داعيا له، ومنهم من يغشى عليه، فيرفع في الاذرع اليه، فشاهدنا هولاً يملأ النفوس انابة وندامة، ويذكرها هول يوم القيامة، فلولم تركب ثبج البحر، وتعتسف مفازات القفر، الا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة، والوجهة المفلحة الناجحة، والحمد لله على ان من بلقاء من يشهد الجمادات بفضله، ويضيق الوجود عن مثله، وفي أثناء مجلسه ذلك يتدرون المسائل وتطير اليه الرقاع فيجاوب أسرع من طرفة عين، وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء لا إله سواه .

ثم شاهدنا مجلساً ثانيا له بكرة يوم الخميس الحادي عشر لصفر بباب بدر في ساحة قصور الخليفة ومناظره مشرفة عليه، وهذا الموضع المذكور هو من حرم الخليفة، وخصّ بالوصول اليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم، ويفتح الباب للعامة فيدخلون الى ذلك الموضع، وقد بُسط بالحصر وجلوسه بهذا الموضع كلّ يوم خميس، فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس المذكور، وقعدنا الى أن وصل هذا الحبر المتكلم فصعد المنبر وأرخى طيلسانه على رأسه تواضعاً لحرمة المكان ، وقد تسطّر القراء امامه على كراسي موضوعة فابتدروا القراءة على الترتيب، وشوقوا ماشاؤا، وأطربوا ماأرادوا ، وبادرت العيون بارسال الدموع ، فلما فرغوا من القراءة وقد أحصينا لهم تسع آيات، من سور مختلفات، صدع بخطبته الزهراء الغراء وأتى بأوائل الآيات في أثنائها منتظمات ، ومشّى الخطبة على فقرة آخر آية منها في الترتيب الى أن أكملها ، وكانت الآية (الله

الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان الله لذو فضل على الناس) فتمادى على هذا السنن ، وحسّن أيّ تحسين ، فكان يومه في ذلك أعجب من أمسه ، ثم أخذ في الثناء على الخليفة والدعاء له ولوالدته ، وكني عنها بالستر الاشرف ، والجناب الارأف ، ثم سلك سبيله في الوعظ ، كلّ ذلك بديهة لا رويّة ، ويصل كلامه في ذلك بالآيات المقروآت على النسق مرة أخرى ، فأرسلت وابلها العيون وأبدت النفوس سرّ شوقها المكنون ، وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين ، وبالتوبة معلنين ، وطاشت الالباب والعقول ، وكثر الوَلَه والذهول ، وصارت النفوس لا تملك تحصيلا ، ولا تميز معقولا ، ولا تجد للصبر سبيلا ، ثم في أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب مبرّحة التشويق ، بديعة الترقيق ، تشعل القلوب وجدا ، ويعود موضوعها النسيبي زهدًا . وكان آخر ما أنشده من ذلك وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام ، وأصابت المقاتلَ سهامُ ذلك الكلام

أين فؤادي أذابه الوجدُ وأين قلبي فما صحا بعدُ
ياسعد زدني جوى بذكرهم بالله قل لي فديت ياسعدُ

ولم يزل يرددها والانفعال قد أثر فيه ، والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه ، الى أن خاف الاحتشام فابتدر القيام ، ونزل عن المنبر دَهِشاً عجلا ، وقد أطار القلوب وجلا ، وترك الناس على أحر من الجمر ، يشيعونه بالمدامع الحمر ، فمن معلن بالانتحاب ، ومن متعفر في التراب ، فياله من مشهد ما أهول مرآه ، وما أسعد من رآه ، نفعنا الله ببركته ، وجعلنا ممن فاز به بنصيب من رحمته ، بمنه وفضله .

وفي أول مجلسه أنشد قصيدا نيّر القبس مراقي النفس في الخليفة أوله

في شغل من الغرام شاغل من هاجه البرق بسفح عاقل

يقول فيها عند ذكر الخليفة

يا كلمات الله كوني عوذة من العيون للامام الكامل

فلما فرغ من انشاده وقد هز المجلس طربا ثم أخذ في شانه، وتمادى في ايراد سحر بيانه، وما كنا نحسب أن متكلما في الدنيا يعطى من ملكة النفوس والتلاعب بها ما أعطي هذا الرجل، فسبحان من يخص بالكمال من يشاء من عباده لا إله غيره

وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسواه من وعاظ بغداد ممن نستغرب شأنه بالاضافة لما عهدناه من متكلمي الغرب، وكنا قد شاهدنا بمكة والمدينة شرفهما الله مجالس من قد ذكرناه في هذا التقييد فصغرت بالاضافة لمجلس هذا الرجل الفذ في نفوسنا قدرا، ولم نستطب لها ذكرا، وأين تقمان مما أريد، وشتان بين اليزيدين، وهيهات الفتيان كثير، والمثل بمالك يسير،

وزرنا بعده بمجلس يطيب سماعه، ويروق استطلاعه، وحضرنا له مجلسا ثالثا يوم السبت الثالث عشر لصفر بالموضع المذكور بازاء داره على الشط الشرقي فأخذت معجزاته البيانية مأخذها، فشاهدنا من أمره عجبا، صعّد بوعظه أنفاس الحاضرين سحبا، وأسال من أدمعهم وابلا سكبا، ثم جعل يردد في آخر مجلسه أبياتا من النسيب شوقا زهديا وطربا، الى أن غلبته الرقة فوثب من أعلى منبره والما مكتئبا، وغادر الكل متندما على نفسه متحبا، لهفان ينادي ياحسرتا واحربا، والنادبون يدورون بنحيبهم دور الرحى، وكل منهم بعدُ من سكرته ماصحا، فسبحان من خلقه عبرة لأولي الالباب، وجعله لتوبة عباده أقوى الاسباب، لا إله سواه.